

الفهم بين العتمة والانبلاج

الطالب الباحث: قوفي أحمد

إشراف الأستاذ الدكتور: عابد بو هادي

مخبر الخطاب الحجاجي

مخبر الخطاب الحجاجي

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

هذا البحث هو محاولة تقديم مظاهر المواجهة والانجذاب بين المبدع والمتلقي ولما يكتف (الخطاب/النص) مقاومته يحصل الغموض ، فلا يتردد المتلقي من مقارنته ، فيلَوّ اندفاعه بمتغيرات التمكن وحينها ينزاح (الخطاب/النص) من مشروعية الفهم إلى فاعلية التواصل دون انبلاج عتمة الغموض.

الكلمات المفتاحية : الفهم؛ الغموض؛ السياق؛ المواجهة؛ التواصل.

Comprehension between opacity and clarity

Abstract: This research aims to present aspects of the confrontation and attraction between the transmitter and the receiver of (speech / text). When the (speech / text) is very resistant to the understanding, it becomes opaque. Then, the receiver of the speech does not hesitate to approach it hurriedly by mobilizing its various capacities. Thus, the (speech / text) is diverted from the legitimacy of understanding to the effectiveness of communication.

Key words: comprehension, opacity, context; the confrontation; Communication

لا ينسجم الانبعاث مع القصديّة لتفاوت زمنية الانطلاق مع محدودية الفهم، لذلك ينطلق المتلقي في محاولة منه إلى جمع مرامي الدلالة ليحضن فضاء المعاني، وهي محاولة لا ينفك أن يستدرجها المتلقي اعتبارا من خصوصية الإبداع، ومراوحة التلقي، ولكن المحاولة تبقى بؤرة الامتزاج بين تركيب اللفظ واختراق المعنى.

ولا شك أنّ العملية برمتها لا تقاس بمعياريّة، إنما هي تفاوت في التحديد، ومن هنا يصبح النص الأدبي، وخاصة النص الشعري فضاء يحتاج آليات مضبوطة تعلن جمالياته كما تعلن إبداعيته. ولما كان المتلقي لا يركن إلى ما يعلنه المبدع، فإنّ النص يبقى في انجذاب دائم. ومنه يتفرع القول بين حرية المبدع في قصديته وأحقية المتلقي في ولوجها ومن ثمة امتلاكها، ولكنه يجد وعورة في ركوبها فتتشظى المعاني في فضاء الإبداع والتلقي، وبالرغم من استعصاء المحاولة إلا أنّ النقد لم يخف نشاطه، بل سائر الانجذاب والنفور ليكون قاعدة معيارية تتفاوت درجاتها، لكنها تعمل على إيضاح عتمة الانبعاث.

تاريخ تسليم البحث: 04 مارس 2017.

تاريخ قبول البحث: 15 جانفي 2018.

إنّ النصّ الشعري القديم لا زال يجذب متلقيه ويربط معهم علاقة ودّ حيناً، ومقاومة في أحيان أخرى، ولا ينفك المتلقي يراوده على حين غرة، ثمّ بمباشرة تحولاته، ليعلن أنّ النصّ الشعري القديم لا تنتهي مقاومته، كما لا تكتمل درجات فهمه، وأنّ انبعاثاته تتجدد كلما وجدت من يخترق حدودها، وأنّ جمالياته تكمن في غموضه، وأنّ الاقتراب منه يستدعي الاستعداد والتزود والتمكن والثوب والوضوح والحرص والجمع بينها.

1/ جمالية الغموض: يتراوح النصّ الشعري بين الغموض والانغلاق، فلا يركن المتلقي إلى دهشته، فتتجمد مقاومته، لأنه يحسب أنّ ولوج مكانه من واجباته قبل أن تكون من حقوقه، لأنّ شراكة المتلقي المبدع في نصه هي حضور الطرفين لأجل سيرورة الإبداع، ومنها حاجة المتلقي لقياس آلياته التأويلية لضمّ النصّ فيلجأ إلى الهجوم، أما المبدع فيعتمد المقاومة، لأنه يبتغي تمرير أفكاره ومن ثمة تحقيق قصديته. ولا شك أنّ تحمس المتلقي لا يُعجزه حواجز الغموض الذي يكتنف النصّ المطروق لأنه " بقدر ما يتّسم النصّ بالسريّة، بقدر ما يتحمس القارئ"¹، لذلك تتكرر محاولات المتلقي في نقل الانجذاب من جمود إلى حركية فاعلة، تقترب لتنتهي إلى غاية التمكن، ولكنها في حالات كثيرة لا يتحقق الاقتراب، فيحسبه المتلقي انغلاقاً لحوامل النصّ، فينفّر من جاذبيته، فيكون الاقتراب محاولة ومراودة لتحسين فرصة الامتلاك "فيمهد الغموض حينها إلى تحريك طاقة التخيل عند المتلقي"² وهنا لابدّ من الإشارة إلى حيوية المتلقي واستعداده لتفعيل محاولاته، لأنّ عدم تمكن محاولاته لا يعني انغلاق النصّ بالضرورة، ولا عجزه عن امتلاك النصّ، وإنما ذلك من حيوية النصّ ذاته، ومن تردد المتلقي بين نظريته وفهمه له، وإذا أخذنا النصّ الأدبي وجدناه يحمل الصورة المجازية بين جنباته، فلا تقوده إلى "الغرض مباشرة مثلما تفعل العبارات الحرفية، وإنما تنحرف به عن الغرض، فيقبل المتلقي على تأمل الصورة المجازية واستنباطها، وعندئذ ينكشف له الجانب الخفي من المعنى"³ فالانحراف في التوجه يجعل المتلقي حذراً في تقبله كما يجعله حذراً في فهمه، ولا يفقد النصّ مشروعيته أثناء محاولات التلقي، إنما يضيف إليه تراكمات معرفية ترسب لتكوّن طاقة جديدة تشعّ حيوية بين النصّ ومتلقيه

إنّ عملية الانجذاب في العملية التواصلية بين إنشاء النصّ وفهمه يحتاج إلى استمرارية الاستعداد والقدرة على التقبل، فيقبل المتلقي على امتلاك نواحيه، ويجعل النصّ المتلقي "يفهم نفسه أمامه فيتمكن من إظهار المتواري والمنسحب منه"⁴ وهكذا تستمر عملية المراودة وكأنّها تحقيق فضول رغبة قبل أن تكون انجذاباً لتواصلية الفهم، وقد ينجذب المتلقي إلى تحقيق امتلاك مفعول الدلالة، لأنّ الانجذاب لا يحقق الفهم النهائي، بقدر ما يفتح تشعبات التأويل الذي لا تتطابق فيه قصدية المبدع بفهم المؤول بالضرورة، لأنّ حقيقة الفهم مرتبطة "بالفهم

الجديد المتجدد حسب ظروف القراءة⁵ فلا يركن المتلقي حينها إلى فرضية الفهم الوحيد، لأنّ ذلك يلغي التصورات الأخرى، وبالتالي يتراجع التلقي إلى مستوى الجمود. وقد يكون السبب النص نفسه، لأنّ الاقتراب من الخطاب العادي مثلاً "ينسجم مع النسق اللغوي العام، ويتنافر الخطاب الشعري مع النسق نفسه"⁶ فلا يتحقق الاقتراب بنفس المسافة، بل يتغير الاقتراب مع كل نص جديد، وقد يرجع السبب إلى المتلقي نفسه، لأنه يحمل آليات لا تتوافق مع النص المطروق، فتكون حمولته مؤدية إلى الغموض، فلا يتحقق عنده فرضية الاقتراب بقدر مجابهة النص في حيويته دون ولوجه، لأنّ "نقص تحصيل المعنى في العلامة اللغوية يتبعه نقص في تحصيل الدلالة"⁷، فلا تتحرك نبضية النص، وإذا تحركت لا تتسع دائرتها، لأنّ الغموض يصعب التحصيل وتبتعد العلامة عن الدلالة، لكن المتلقي لا تفر عزيمته في طرق مكامن النص، فالغموض لا يبعده عن تحقيق ذاته في انجذاب الإرادة ولكنه يبعد الفهم حينما يفرض النص قوته في الاستعصاء والممانعة، فلا يكثر لتكرار المحاولة، وعندما يتوصل المتلقي إلى كشف مخابئ المعاني تنجلي مكابדתه وتتحول "سعادة حقيقية، سعادة الزهو بالقدرة الذاتية التي شارفت اكتشاف المعنى، فأصبحت مشاركة في إنتاج المعنى"⁸، لكن المشاركة تستدعي المواجهة، والمواجهة تعتمد الاستعداد، وهو كذلك يحتاج آليات وحمولة معرفية، لأنّ "النص المشكل فيه من الخفاء والعمق المعرفي وفيه من دقة الصنعة ما يثير كثيراً من إشكاليات القراءة"⁹ ولا تقترب القراءات المختلفة للنص حتى تبتعد من حيث الفهم، فتتكون بينها فجوات التصدي، حتى إنّ النص يجمع التناقضات التي لا تلتقي، بل يصبح للغموض جماليات تتعزز بين الاقتراب والابتعاد، فإذا تحققت المساحة من الغموض ينجذب المتلقي لسيرورة المواجهة فلا يعدم الحيلة في أسر المعاني، فتصبح الدلالة حينها ليس "للقبض على المعنى الراجح، بل لتكييف تلقي القارئ"¹⁰ لأن الغموض لا يتشكل من تكرارية القراءة، بل من أحاديثها وقد يتشكل الغموض من آليات القراءة التي يعتمد عليها المتلقي "مزوداً معايير ومقاييس ألفها ودرج على استعمالها، في حين أنّ النص يرفض كل تقييم من الخارج"¹¹ وهي إشكالية تتكرر كلما اقترب المتلقي من النص في محاولات متقاربة في الزمن أو متباعدة، بل تطرح كلما اقترب من نصوص لوقته أو ماضيه في الحضور. ولا شك أنّ مقارنة امتلاك النص هو امتلاك تصورات الإبداع وتحقيق قصدية المبدع وفهم المتلقي وتجاوزات النص نفسه، ولا يتحقق ذلك إلا في حدود نسبية الفهم نفسه.

2/ فضاء الفهم:

لا تتحدد معالم النص إلاً بمقاربة المتلقي له، لأنّ فرضية إبداعه تصبح من الماضي الذي انصهرت فيه عوامل تكوينه، وقد تكون صورة الاقتراب محسوبة على المتلقي في التواصل مع النص المطروق ولكنها، لا تنفي مسؤولية المبدع الذي تشكل النص عنده فكرة قبل أن يسلك سبل الظهور، لذلك لا يخلو الحضور من الخفوت والظهور، وهي ظاهرة تتصل بخلود نصوص دون أخرى، فتجتمع مراهنة الثبات على اندماج فعل المبدع مع تواصلية المتلقي، وهي عملية تحتاج الائتلاف والانجذاب، الأولى تتكون عند المبدع في تكوين نصه قصد التمكين وتحقق عند الثاني قصد التمكين، وتحقق جودة النص الأدبي في احتضان عناصره، وفيها يرتقي المبدع من خاصية الإنشاء إلى إجادة الإبداع "فالمجيد من الأدباء هو من يجمع في أدبه بين مفردات يتولد من ارتباط معانيها معنى جليّ، ومن تألف رناتها لحن شجيّ، ومن اندماج ألوانها صورة معجبة"¹² وهذه المفاضلة لا يظهرها إلاً النقد المبني على وضوح الرؤية، التي تنظر إلى النص في كينونة خاصة تبعده عن المفاضلة ولكنها لا تدخله في سياق الممانعة لأنّ النص الأدبي "لا توجد فيه مستويات من الوضوح وإنما يوجد المرئي وغير المرئي إذ تلخص مهمة المستقبل في اكتشاف غير المرئي"¹³، ولكن المتلقي لا يكتشف أغوار غير المرئي إلاً إذا حدّد نظريته إلى النص حسب الرؤية والآليات، أمّا الرؤية فهي معرفة كينونة النص نفسه حتى تتحقق نقدية العمل وتواصله. لأنّ ولوج الفضاء تتحدد ملامحه في تحقيق الدلالة، ولكنّ الدلالة تختلف بحسب النصوص، فمنها ما تتحدد "دون قرينة، ومنها ما تتحدد بقرينة عقلية أو لغوية ومنها ما تكون منفصلة عنه"¹⁴ وهو أمر يجب على المتلقي الناقد أن يكون على دراية به، أما الآليات فهي السبل التي يتبعها في حضور النص، ولا يتمكن من ذلك إلاً بمعرفة أنّ "اللغة تخون الدلالة، إمّا خيانة طبيعية أو خيانة قصدية بإحداث انزياح"¹⁵ لذلك لا يركن للمعنى الظاهر، وإنّما يعتبره موارد تستدعي الحضور المعرفي قصد تحقيق الانجذاب للنص، ومن ثمة حصول الفهم حتى تتفاعل مستويات القبول. والفهم في نظر الدارسين يحصل ضمن محاولة التفسير، وأنّ العملية هي "كتابة ثانية للنص"¹⁶ لتكون العملية تشاركية بين المبدع والمتلقي لامتناسل الاندفاع الذي يحصل خلال المحاولة، على أن تكون خصوصية مبنية على رؤية المتلقي في مواجهة النص، لأنّ الاندفاع يحول دون النفاذ السليم.

وقد يخدع ظاهر اللفظ المتلقي فيميل تأويله وجهة معينة، لأنه اعتمد استقصاء المعنى في بناء الدلالة ما تجلّى من الظاهر. لذلك لا يقرن الوضوح والغموض إلاً في سلسلة المعنى العام أما تجزئة المعاني حسب التركيب، فإنه يخلق نتوءات في الفهم، لأنّ الوضوح لا يكون "على الكلمات، بل الوضوح المستنبط من الكلمات"¹⁷ وإذا حصل للمتلقي ما يعيق فهمه

يستدرك أمره بتغيير الآليات، لأن اعتماد وجهة معينة هو جمود الفهم ويصبح فهم الكلام "أشبه بمعجزة حسابية"¹⁸ فتستدعي العملية مراجعة الفهم وسبل التواصل، فلا يني المتلقي في تكثيف المراجعة قصد مقارنة النصوص المختلفة، بل يخلق لنفسه آليات أخرى تمكنه من التواصل، لذلك يرى أحد الدارسين "أنّ للقراءة النسقية للخطاب، والقراءة السياقية لمضمونه، وتدبر موقعيته داخل النص، وربط أجزاء المراجع والإحالات تعين بقدر بارز على تحديد دلالة الخطاب"¹⁹ على أنّ اجتماع العناصر السابقة عند المتلقي يستدعي حضوراً نوعياً وتواصلًا مركزاً على خلفيات النصوص ونوعيتها لذلك يتجلى الخطاب ضمن النص في فرضية التأسيس والملازمة حتى تتحقق المقاربة.

3/ فاعلية الفهم وجبروت الغموض:

لا يستسلم المتلقي لفجوات النصوص، ولا يركن لضربات الغموض، لأنه حدد منهجية مواجهته في مقارنة النص فيميل متدرجاً في تحديد نوعية النص حتى يحدد نوع آلية التواصل، ثم يقترب منه رغبة في امتلاكه " فيتضافر القصد والإرادة والعلم والكتابة من أجل انجاز فعل تواصل تام ومكتمل الجوانب"²⁰ لذلك تكون مقارنة النص فعلاً مشتركاً بين المبدع والمتلقي ولا تقدر جودة العمل من خلال أحقية المبدع في تحديد قصديته، ولا من خلال قدرة المتلقي في فهم النص نفسه، لأن النص مرتبط بزمان إنتاجه وليس تلقيه، فلا يتحقق التوافق بالضرورة لاعتبار الاختلاف بينهما. وبذلك يتحقق التقارب بينهما عن طريق الفهم القبلي للمبدع مع الفهم البعدي للمتلقي اللذين يجتمعان من "فهم مسبق يصوغه منتج النص، وفهم مسبق يتنبأ به متلقي النص"²¹ وبين الصياغة والتنبؤ يتشاكل المضمون والمعنى والدلالة، وتصبح آلية الفهم محفوفة بالغموض والانغلاق، فيميل المتلقي إلى الاستعانة بالسياق والإطار الزمني والتاريخي لإبادة الانغلاق، وكأنه يحمي صورة التلقي من حتمية الإيهام والجمود، لذلك لابد من انفتاح كل من المبدع والمتلقي على بعضهما، ليكون التواصل عملية إلغاء "تراتبية العلاقة بين المؤلف والقارئ لكون هؤلاء الأطراف يعدّون كيانات نصية مجردة تقوم على أساس الحوار"²² لأن غياب التواصل هو تغيب أحدهما، مما يجعل النص متاهة تُضلُّ من يأتها. وإذا كان المبدع لا يستطيع تغيير عمله باعتباره خرج من سلطته منذ إخراجهِ إلى العلن، فإنّ المتلقي له حظوظ المناورة ومدارة النص فتكون مقارنته متدرجة مدركة لمفعول اللقاء، فيعتمد استراتيجية الاقتراب على نحو الاستطاعة، فإذا وجد جموداً أو نفوراً غير مقارنته على نحو التواصل والمحاوره، وكذلك يفعل كل مرة أدرك عجزه عن التواصل المستهدف، بل يغير مقارنته ضمن النصوص المتشابهة أو المختلفة، لأنها لا تسير على خط متواز، بل هي إنتاجات ذات حمولة

مختلفة، وهذا التغيير الذي يسميه النقاد "المفعول الارتجاعي"²³ يجعل المتلقي يغيّر مقاربته من عمل لآخر، بل يغيرها من زمن لآخر للنص نفسه. ولا يتأتى ذلك إلا من نوعية القراءة وتلقي النص، مما يحتم فرضية نوعية المتلقي الذي يقابل النص بحفاوة دون خوف أو نفور، لأنّ القراءة النوعية توفر "القارئ الذكي الحاذق المدرب المتذوق، المؤهل لجماليات التلقي مثلما أنّ الشاعر (المبدع) مؤهل لجماليات الإبداع"²⁴ ولا يعتبر ذلك جنوحاً إلى الخيال أو المثالية النادرة، لأنّ تحقيق ذلك يستدعي شحن المبدع والمتلقي معاً في فضاء متحرك نشط، تختمر فيه الأفكار أولاً، وحركية الفعل ثانياً والتحول والانجذاب دائماً، لأنّ سيرورة الفعل الإبداعي لا تحتل التخفي والانزواء إنما يُفعلها "جاهزية القارئ وكفاءته، والتوغل في جسد النص، وتماثله وتلاقيه"²⁵، وقد تقترن الجاهزية بالكفاءة حينما يجتمع عند المتلقي الاستعداد لمقاربة النصوص المختلفة وله قدرات ومعرفة بآليات الطريقة وأسباب التواصل فتكون تلك الكفاءة حاملة لقدرات لغوية وبلاغية تمكنه من استنطاق الغموض وفتح المجهول فيتحول النص بحمولة واضحة المعالم، تندرج فيه مدارك المتلقي بين تشعبات فصوصه، وكأنه انقاد له بعد استعصاء، وانجذب له بعد نفور، ولا يتحقق ذلك له إلاّ بتمكن المتلقي منه، من حيث الشكل والأغراض والمعاني"²⁶ ثمّ إنّ تعدد الفهم واختلاف التأويل للنصوص لا يعني غموضها أو انغلاقها بالضرورة فحتى النصوص المنقادة بألفاظها الواضحة واقترب معانيها من مقاربة الفهم لم تسلم من هذا الاختلاف والتعدد، وقد اختلف النقاد في قول امرئ القيس²⁷:

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبّا جاءت برياً القرنفل

فمن قائل: تضوع مثل المسك منهما نسيم الصبّا.

ومن قائل: تضوع نسيم الصبّا منهما

ومن قائل: تضوع المسك منهما تضوع نسيم الصبّا.

ومن قائل: تضوع المسك منهما (بفتح الميم يعني الجلد) بنسيم الصبّا

فلا يستطيع التأويل نفي الآخر، ولا يستطيع إثبات نفسه ما دام يقترن بتركيب اللفظ الظاهر أما المعنى الخفي فهو زنبقي الحركة لا يقرن ولا يقترن، حتى إنّ هذه التأويلات المختلفة "لم يخطر بخاطر الشاعر وقت العمل"²⁸

فالانحياز لمعنى معين هو انجذاب لوضع اللفظ والتركيب فقط. وإذا كان خلود نصوص دون غيرها مردّه جاذبيتها من غموض معانيها واحتجائها عن الانجلاء، فتختلف المقاربات من حيث التباين والاتفاق، فإنّ تأسيس الفهم يبني على فعل التواصل والمحاوره، وقد يتأسس الغموض لجذب المتلقي في محاوره المبدع على أساس أنهما على وفاق في الفهم، لكن غيرهما تجذر فيهم مظاهر مقاومة دلالة الخطاب باعتبار أنّ النص المطروق لم يحصل التواصل معه،

ومنها قول امرأة من آل برمك للخليفة العباسي هارون الرشيد "يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما أتاك وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت" لكنه فهم الخفي من الدعاء عكس جلسائه، قالوا "ما نراها قالت إلا خيراً". قال "ما أظنكم فهمتم ذلك"، أما قولها أقر الله عينك أي: أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ (الأنعام الآية: 44)، وأما قولها "وأتم الله سعدك" فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمرٌ بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

وقولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن الآية: 15)، فتعجبوا من ذلك²⁹. لقد كان التواصل مبنيًا على الحوار والمواجهة، فالمبدع تستر بظاهر الدعاء، وقد بناه في مخيلته قبل مواجهة المتلقي، أما المتلقي فقد تجرد حضوره لظاهر الخطاب أيضا، ولم يحاول فهمه في حضرة السلطة أما المتلقي المستهدف، فإنه لم يستسلم لظاهر القول بقدر تأويله، فحاول أن يظهر الخفي اعتمادا على قرائن يقينية، فهم القول على طريقة فهم السلطة ونقض المعارضة فحصد لذلك دليل فهم الغير، وحجة إعجاب الحضور، فلم تكثر فاعلية الفهم لجبروت الغموض، وحين تلتقي "حساسية" (المبدع) وحساسية المتلقي تتقاطعان مع إشعاعات الدلالة³⁰، فيحسن الأول أنه أنتج رسالة ويقرب الثاني منه وتتضح معالم فهمه لها، وكأنهما يتفقان على جمالية الغموض في سلطة الحضور وتبنى مرجعية الحضور على فكرة المراوغة كما تبني من جهة أخرى مقاربة المتلقي على فهم تلك المراوغة وهو ما حصل في القصة السابقة، فتكون فاعلية الفهم فائدة لحركية الغموض ضمن سيرورة التواصل. لكن الذي حصل هو بناء فكرة المبدع على الغموض وانجذاب المتلقي إلى الفهم لولوج مكامن الرسالة، فاستدعى الالتقاء بينهما اعتماد الوضوح في إلقاء الدعاء ظاهرياً بنبرة المستضعف، ووضوحه وعند المتلقي خفية، لكن نبرة التعبير اختلفت بين مبدع اعتمد الإلقاء ومتلقي اعتمد الصمت والاستماع لكن تحول الأمر معكوساً فيما بعد.

ولما يكون النص موجهاً لمتلقي خاص، يكون مبنياً على الإيجاز وتحديد الهدف فلا يستطيع الجمهور إدراك المضمون، لذلك كان قول جلساء الخليفة "ما نراها قالت إلا خيراً" وقد يكون هذا القول مبنياً على جهل أو تجاهل لمضمونه، وبالتالي يصبح الرد منطلقاً من خوف الخليفة أو خوف على المرأة، فهذا الميل إلى الغموض هو فهم سلبى للنص غرضه الاحتراز من إظهار الموقف فيكون الغموض طريقاً إلى النجاة، أما إظهار الفهم فهو حكم على دلالة الخطاب.

لا شك أن تلقي الخليفة لقول المرأة كان مبنياً على السياق الخارجي وهي المعارضة. لأنّ القائلة تحسب على معارض لا يضر إلا الشر لأن مضمون القول كان واضحاً نمطياً يتكرر في

الفهم بين العزمة والأنبلاج ————— مجلة فصل الخطاب

كل مناسبة التقاء السلطة بالرعية لكنه كان ذو مضمون خفي في نظر المتلقي (ال خليفة) لذلك جاء تأويله متراوفاً بين المراوغة وتوجيه الفهم، فمال موقفه إلى مؤامرة المعارضة على السلطة فاختلف الظاهر عن الخفي.

ولما أراد المتلقي (ال خليفة) تبرير موقفه للحضور من الآي القرآني والشعر واللغة والبلاغة ما يضيف لاعتراضه من قوة من حيث (اللفظ وصحة النقل وفهم المضمون)³¹ وقد التقى نقل الآيتين مع فهم المضمون في تأويل قولها: فرَحَكَ بما أتاكَ، وحكمت فقسّطت ليكون الفهم تناسلاً لهما. وهو استرداد لمعاني اللفظين حسب قول المفسرين لهما، ويضيف لفهمه إضافة بلاغية في مجاوزة اللفظ ضمن التركيب للمعنى الظاهري. لذلك مال المتلقي إلى تبرير قوله بشرح مجازي لقولها: أقرّ الله عينك، بتأويله قولها: "أقرّ الله عينك أي أسكتها عن الحركة وإذا سكنت العين عن الحركة عميت" وهذا التأويل يستهدف الجلساء والمرأة معاً. لأنّ هذا التأويل المضاد يلقي في النفوس الرهبة وسرعة الفهم وتبرير الغاية وانقلاب الدلالة ليتحول غموض الخطاب إلى جمالية الفهم والقدرة على الاستقبال، لأن المتلقي يركن في تأويله إلى فرضيات تجتمع في الخطاب نفسه، ويحاول بناء فهمه في تدرج مختلف، لأن الخطاب السابق قد يفهم على وجهه الظاهر بناء على فرضية الدعاء والطلب في سياق التقاء السلطة بالرعية، ومحاولة التمكن وبعث حيوية التواصل في خضم التجاذب الانفعالي بين السلطة والمعارضة.

ولا يستطيع المتلقي فكّ غموض النص إذا لم يدرك جوانبه، من حيث التراكيب والإطار الزمني، ومضمون الفكرة، لذلك يبقى يزاحمه بين الفهم الظاهري وخفي المضمون، لأنّ الركون لجانب معين يعيق احتراز المعنى المطلوب، وقد يوجهه وجهة معينة لا تقبل التأويلات المختلفة، وحينما يقابل المتلقي قول أبي النّشّاش النّهشلي³²:

ولو كان شيءٌ ناجياً من منيةٍ لكان أثيرٌ يوم جاءت كتائبه

فيجد معنى البيت واضحاً، فيه حكمة تدعو إلى الإقرار بحتمية الموت، لكن التركيز على اللفظ دون التركيب يجمد الفهم، ويجعله يراوح ظاهره. فلفظ "أثير" يحرك الفهم وينقله إلى التأويل المختلف، فصاحب لسان العرب يُعرّفه: رجل أثير بمعنى مكيف ومكرم، ويطلق على أول كلّ شيء، كما يطلق على الصبح³³ لكن ربط اللفظ في موقعه في ثنايا التركيب يجعله يتزاح عن هذا الفهم، ويقترب من فهم آخر مختلف، فيكون اللفظ مطلقاً لاسم علم وهو "أثير بن عمرو السكوني الطبيب الكوفي، الذي دعي لعلاج عليّ بن أبي طالب. رضي الله عنه. لما ضربه أبو ملجم، بعد أن جمع الأطباء وكان أبصرهم بالطب"³⁴ ويكون المعنى الذي يجمعه المتلقي من البيت كله "يعني لو سلم أحد من الموت لَسَلِمَ منه أثير الطبيب بطبه"³⁵ ولا يترك المتلقي منافذ أخرى للفهم حتى يدركها رغبة منه في إصابة الفهم السليم، فيكون فهم خلفيات القول

ومناسبتة أضواء تنير سبيل المتلقي فيميل فهم البيت إلى أن صاحبه كان من الصعاليك "يعترضون القوافل بين الحجاز والشام"³⁶ حياتهم مبنية على الإغارة والخطف وأن إقراره بحتمية الموت مبنية على جسارة القول والفعل عند الشعراء الصعاليك، لذلك جاءت رؤيتهم للحياة مختلفة عن غيرهم من الناس. ففي قوله:

فَعِشْ مُعَذِّراً أَوْ مُتْ كَرِيماً فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ لَا يُبْقِي عَلَى مَنْ يُطَالِبُهُ

هو موت الإنسان بشرف وهو يسعى لغرض وجوده وإصلاح حاله خيرٌ له من أن يلقاه وهو قاعد ذليل"³⁷ فإذا كان القول تنجذب معانيه بفتح مغاليق الألفاظ، فإن المتلقي ينزاح فهمه بين معنى اللفظ ضمن الشرح المعجمي ومساحة الدلالة المنبثقة عن التراكيب والجمل، لذلك ينبغي فهمه بين الثبوت والانزياح، لأنه لا يقف على حد دون آخر، فتكون حدود الفهم مسيجة بأشواك الغموض لكنه غموض يدفع إلى مغامرة اكتشاف المجهول، لتنبعث نسمات الفضول بين الرغبة والانحدار التأويلي الذي يتشابك تلقائياً بين ظهور المعنى وانفلاته مستترا في أغوار التلقي.

مراجع البحث وإحالاته:

1. زحام الخطابات، د. عبد الله العثي، دار الأمل، تيزي وزو- الجزائر، ط1، 2005، ص: 147.
- 2 - استقبال النص عند العرب، د محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991، ص: 214.
- 3 - قضية التلقي في النقد العربي، د فاطمة البريكي، دار العالم العربي للنشر، دبي، ط1، 2001، ص: 195.
- 4 - اللغة والتأويل، عمارة ناصر، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص: 34.
- 5 - النص والتأويل: دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، د عبد الجليل منقور، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2010، ص: 55.
- 6 - الظاهر والمخفي، د عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، د ت، ص: 65.
- 7 - حضور الدلالة وغيابها، محمد ربيع الغامدي، مجلة علامات في النقد، المركز الأدبي الثقافي، جدة، 2001، المجلد 10، الجزء 39، ص: 91.
- 8 - استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991، ص: 230.
- 9 - في تأويل المناسبة، محمد بن مريسي الحارثي، مجلة علامات في النقد، المركز الأدبي الثقافي، جدة، 2001، المجلد 10، الجزء 39، ص: 23.
- 10 - النص والتأويل، عبد الجليل منقور، ص: 53.
- 11 - قراءات غير بريئة، د. أمينة غصن، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991، ص: 27.
- 12 - النقد الأدبي في العصر المملوكي، عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1991، ص: 313.
- 13 - استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، ص: 217.

- 14 - النص والتأويل: دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، عبد الجليل منقور، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2010، ص:61
- 15 - نفس المرجع، ص:141.
- 16 - النص والتأويل، محمد مهدي غالي، مجلة علامات في النقد، المركز الأدبي الثقافي، جدة، 2001، المجلد 10، الجزء 39، ص:177
- 17 - استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، ص:216
- 18 - النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، تر. تمام حسن، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص:430
- 19 - النص والتأويل، عبد الجليل منقور، ص:143
- 20 - سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، أحمد يوسف، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، جامعة وهران. الجزائر، ط1، 2004، ص:70
- 21 - مدخل إلى علم النص، زتسيسلاف واو زنيك، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003، ص:84
- 22 - سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، أحمد يوسف، ص:178
- 23 - شيفرة أدونيس الشعرية: سيمياء الدال ولعبة المعنى، د. محمد صابر عبيد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص:57
- 24 - الإبهام في شعر الحداثة: العوامل والمظاهر وآليات التأويل، عبد الرحمن محمد القعود، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس 2002، ص:346
- 25 - شيفرة أدونيس الشعرية، ص:57
- 26 - بلاغة النقد وعلم الشعر في التراث النقدي، بوجمعة شتوان، دار الأمل، تيزي وزو، دط- دت، ص:199
- 27 - النقد الأدبي في العصر المملوكي، عبده عبد العزيز قلقيلة، ص:302
- 28 - المرجع نفسه، ص:302
- 29 - المستطرف، شهاب الدين الأبشيبي، تحقيق، مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، دط، 2002، ص:67
- 30 - الموسوعة الأدبية، فيصل الأحمر، نبيل داودة، دار المعرفة، الجزائر، دت. دط. ص:225 انظر أيضا نظرية القراءة، أحمد بوحسن، ص:78
- 31 - دراسات في الحجاج، د. سامية الدريدي الحسني، عالم الكتب الحديث، أريد جدار الكتاب العالمي، عمان، ط1، 2009، ص:127
- 32 - نصوص من الأدب الأموي، د. حسين عطوان، دار المسيرة، الأردن، ط1 2005، ص:360
- 33 - لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2008-مادة "أثير"
- 34 - نصوص من الأدب الأموي، حسين عطوان، هامش:360
- 35 - المرجع نفسه، ص:360
- 36 - الصعاليك في العصر الأموي، محمد رضا مروة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، ص:90
- 37 - الصعاليك في العصر الأموي، محمد رضا، ص:102